
المنظومة
ALMANDUMAH


المنظومة
ALMANDUMAH

أصل التصوف وحقيقته

بقلم الدكتور ابراهيم ابراهيم هلال

أود أن أبين أولا أن التصوف فى أصله بعيد عن الدين الاسلامى ، وأن الدين الاسلامى حين جاء لم يكن فيه هذا الاتجاه كما هو معروف لدى المثقفين ثقافة اسلامية .

وانما جاء هذا التصوف الى الدين الاسلامى والى مجتمع الاسلام فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، وذلك مع ترجمة العلوم والثقافة اليونانية وغيرها الى اللغة العربية ، واطلاع المسلمين على تلك الثقافات . فرأينا كلمة « تصوف » بدأت تظهر فى هذا الوقت ، فكان ظهورها قرينا للفلسفة أو الحكمة اليونانية أو غيرها وظهورها فى المجتمع الاسلامى .

وهذه الفلسفات القديمة لها تصوفها كما هو معروف ، وانتقل المضمون مع اللفظ من بيئة أو بيئات أجنبية فى ذلك الوقت ، واختار المغرمون بهذا النوع من الفلسفة أو الحكمة هذا اللفظ (صوف) أو تصوف كما هو تقريبا فى اللسان اليونانى : (سوفوس) أو (سافيس) مع تحريف يسير كما يحدث عادة فى الترجمة حين ينقل اللفظ بحروفه علما على ذلك النوع من الحكمة ، أو الفلسفة وسمى تصوفا ، وسمى المتصوف (صوفى) أو متصوفا أو صوفيا الخ . فانتقل اللفظ مع المضمون الى بيئتنا ثم مع مرور الزمن حسب علينا ، وأدخل على ديننا .

وقد أحس العلماء والصوفية بعد ذلك غرابة هذا الاسم (صوفى) وعدم وجوده فى اللغة العربية لا لغة ولا كتابا ولا سنة ، فأخذوا يلصقونه أيضا باللغة العربية بعد أن ألصقوا مضمونه بالتراث الاسلامى ، ويشتقونه من معان ومسميات دينية اسلامية ، ولكنهم اختلفوا على أنفسهم ، فلم يتفقوا فى نسبته واشتقاقه على شىء ، وكما هو معروف فى كتبهم وواضح للعيان ، فبعضهم نسبه الى الصفاء ، وبعضهم نسبه الى الصفة التى كانت فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وبعضهم نسبه الى الصف الاول ، وبعضهم نسبه الى الصوف ، والكل متمسك بنسبته ، مما يدل على أنه دخيل على اللغة العربيـــة ، وعلى الاسلام لعدم الثبات على نسبة واحدة مع دخول الخطأ اللغوى على معظم هذه النسب •

ومن جهة أخرى فان مضمون التصوف فى الوسط الاسلامى — وكما هو معروف حاليا — هو مضمون التصوف قديما ، وفى دوائر الفلسفة اليونانية ، التى كانت تطلق عليه أيضا لفظا قريبا من اللفظ المتقـــدم (سوفوس) • فكلمة (تيو صوفية) اليونانية كانت تطلق عندهم على مذهب روحى يعتنقه النساك والزهاد • وجاء فى دائرة المعارف البريطانية أن (التيو صوفيين) كانوا معروفين فى أزمان بعيدة ، وكانوا يزهدون فى الدنيا ، وينقطعون الى النسك والعبادة واستنزال الحكمة الالهيـــة على قلوبهم ، وأن هذه الكلمة مركبة من لفظين تركيبا مزاجيا وهمـــا لفظ (تيو) ومعناه (اله) و (صـــوفيا) ومعنـــاه (الحكمة) ونحن نعرف مدى تصور هؤلاء لعبادتهم ، والى الاله أو الآلهة التى يعبدونها ، وأنهم فى تصوراتهم هذه كانوا أقرب الى الوثنية بكثير جدا من التدين السماوى الحق • وسلوكهم الى هذا التنسك الوثنى ، لا يقل وثنيـــة عن الغاية ذاتها • فلا يجوز لنا أن نأتى بما ضل به هؤلاء فى عبادتهم واجتهاداتهم حين كانوا بعيدين عن الرسل ، وعن الانبياء •

أما وقد هدانا الله ، بأنبيائنا ورسلنا السابقين وختم تلك الهداية بتلك الحلقة الخاتمة التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا داعى لنا أن نسلك مسالك هؤلاء الذين لم يهدهم الله بما هدانا به •

ومن سلك من علمائنا السابقين ، أو الفلاسفة المسلمين هـــذه المسالك ، فقد ندموا فى نهاية حياتهم على ما فرط منهم •

فهذا ابن الفارض يقول فى آخر حياته مبطلا ما أثر عنه من الحب الالهى ، أو العشق الالهى الذى سلك فيه مسلك (أفلوطين) الشيخ أو الفيلسوف اليونانى السكندرى ، وأتى بما أتى به هذا الاخير من وثنيات — يقول ابن الفارض نادما على ذلك مبطلا له :

ان كان منزلتى فى الحب عندكم ما قد ظفرت فقد ضيعت أيامى

ويقول الامام الغزالى مثل هذا القول فى نهاية حياته ندما على ما وقع منه فى المنقذ من الضلال والاحياء وغيرهما من عقائد صوفية ، ويعلل ذلك بأنه انما وقع فيما وقع فيه من التصـــوف لانه كان مزجى البضاعة فى الحديث ، ثم عكف فى آخر آيامه على قراءة البخارى ومسلم، وكذلك فعل ابن سينا وغيرهم كثيرون ..

فهذه تجارب وقعت من هؤلاء عن حسن نية ، لانهم ظنوا أن فى هذه الفلسفة اليونانية أو التصوف اليونانى ، شفاء لمـــا يعتمل فى نفوسهم من مشكلات عقائدية أو فكرية دينية ، وكانوا قد قرأوا هذه الفلسفات قبل أن يتعمقوا ويستفيضوا فى دراسة القرآن الكريم والسنة النبوية، فنسوا أنفسهم مع هذه الفلسفات لغلبة الجانب النفسى والخيالى فيها على الجانب العقلى المنطقى ، وأتوا يفسرون بها كثيرا من مشكلاتهم ، ثم يفسرون بها كثيرا من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية التى فصلت فى هذه المشكلات نفسها ، ولكن بالفصل العملى المعقول الذى يقرب الانسان من الكون ، ولا يبعده عنه ، ويعرفه عليه ولا يجافى بينه وبينه، ثم عن هذا التعريف على الكون وعلى النفس يعرفه على الله الذى خلقه ورزقه وأحياه وأماته — الخ ..

فأخضعوا النصوص الاسلامية بهذا لأصولهم الفلسفية التصوفية، فنشأ عن هذا ذلك الضلال الذى لاموا أنفسهم عليه أخيرا ، وأقبلوا على الله يستغفرونه . ولكن قد جاء ذلك بعد فوات الاوان ، فما كان أسرع أصحاب الميول الوثنية المجوسية أو غيرها الى تسجيل كل ذلك عنهم ونسخ كتبهم وتداولها مما لم يعد ينفع معه استغفار أو ندم ..

وأشاد هؤلاء المجوسيون بأصحاب هذه الكتب وهذه الآراء عن طريق تسميتهم بسيدى أو بالعارف بالله ، أو بحجة الاسلام ، الخ . تلك المسميات التى ليست من الدين فى شىء وليست تمت الى شىء من الواقع فى اطلاقها على أصحابها .

فلنفطن الى ذلك ولنعرف أن أصول ديننا ، هى القرآن والســـنة فقط ، وفيهما كل شىء وفيهما الاجابة على كل استفسار ، أو اشـــكال

البقية صفحـــة (٤٣)

بقية مقال (أصل التصوف وحقيقته)

وعلينا أن نقرأ وأن نتدبر ، ونطلع فيهما ونسبح فى متنزهاتهما ، فسنجد ما يشفى ، ويكفى ويقنع وفى ذلك يقول الله تعالى : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) ولذلك فأنا أرى رأى من يقول ان عمر ابن الخطاب هو الذى أحرق مكتبة الاسكندرية لان تلك المكتبة فى ذلك الوقت كانت تشمل كل وثنيات أفلاطون ، وأفلوطين ، وغيرهما من فلسفات اليهود والصابئة الهرامسة وغيرهم ما هو كفيل بأن يزعزع العقائد ، ويزرع الالحاد ، واذا كان قد روى عن عمر رضى الله عنه فى هذا الصدد : (ان كان فيها « أى الكتب » ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى) فهذه الرواية نقبلها ونؤيدها بقوله تعالى (ان الدين عند الله الاسلام)وبقوله صلى الله عليه وسلم : « لقد تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا أبدا كتاب الله وسنة نبيه » .

ابراهيم ابراهيم هلال

---

(١) الغلس : بقايا ظلام الليل .